

# استلهم دروس التاريخ لمواجهة تحديات الواقع

وسيم السيسي عالم مصريات: بالإمكان الاستفادة من قانون أخلاق مصر القديمة لكسر موجات الكراهية



لابديل لمواجهة التطرف والتعصب إلا بالتمسك بقيم الحضارات العظيمة

والملك «مرنبتاح» عاش خمسة أعوام بعد انتصاره على تلك القبائل. وأضاف السيسي أن الباحثين الساعين للربط بين التاريخ المصري وتاريخ العبرانيين، أشاعوا بعد ذلك أن رمسيس الثاني هو نفسه فرعون موسى، ووصل الأمر إلى أن حاولوا الانتقام من جثمانه عند عرضه في باريس خلال السبعينات من القرن الماضي.

## قانون الأخلاق القديم

سلطت النصوص المصرية القديمة الضوء على مكانة الأخلاق ومكافحة الجريمة بعقوبات مختلفة كعنصرين أساسيين في جوهر حياة المصريين قديما، وشغلت مكارم الأخلاق حيزا كبيرا استند إلى خبرات وعادات اجتماعية متنوعة وممتدة عبر تاريخهم، في الوقت الذي نهض فيه الدين بدور بارز في تنظيم حياتهم في محيط الأسرة والمجتمع. تبعا لذلك دعا



وسيم السيسي إلى الاستفادة من قانون الأخلاق القديم وتدريبه للتلاميذ في المدارس، باعتباره أقدم قانون أخلاقي، ويضم هذا القانون اعترافات المصري القديم أمام المحكمة الإلهية في الحياة الأخرى. وهو عبارة عن 42 اعترافا، منها اعترافات إنكارية بصيغة «لم أفعل» وأخرى إيجابية بصيغة «فعلت».

وشدد على أن استدعاء القانون الأخلاقي ضرورة لكسر موجات الكراهية المتفشية، فالحضارات القديمة إلى جانب تقدمها في العلوم والهندسة والفنون، اصطحبت معها تقدما في مجالات الحياة الاجتماعية الأخرى كالنظرة إلى المرأة والتعامل معها، وهي نظرة متقدمة فيها احترام وتقدير لها، على سبيل المثال قدم القدماء لزوجاتهم الورد كتعبير عن الحب. وخلص المؤرخ المصري وسيم السيسي في ختام حوار مع «العرب» بقوله «الشعوب تستقي معارفها وحضاراتها، وتلاقى الثقافات، وتنوع الأفكار والرؤى، ولا بديل لمواجهة التطرف والتعصب إلا من خلال التمسك بقيم الحضارات العظيمة».

فضلا عن كونهم أول من اخترعوا مقياسا للمياه، وهو مرسوم على معابد فيلة، ما يعني أنهم استخدموا العلم فقط في التعامل مع فيضان وجفاف النهر. وقدم السيسي مثالا لفكرة «الفرعون الإله» الشائعة، وحسب رأيه فهي افتراء من المؤرخين ذوي التوجهات غير المنصفة. ورد على ذلك بأن عهد الملك رمسيس الثالث شهد تشكيل محكمة من 15 قاضيا لمحاكمة ابن الملك، وتم الحكم عليه بالإعدام، ولو كان الناس يؤمنون بأن الملك إله، فإن ابنه بالضرورة هو إله أيضا، ولا يمكن لبشر أن يحاكم إلهه أو ابن إلهه.

وتدحض قراءة نصوص الحكم والسياسة الأسطورية تماما. ونقرأ مثلا في وصايا الملك إلى وزيره حين كلفه بالوظيفة «اعلم أن الوزارة مرة وليست حرة، فأياك أن تقرب إنسانا منك لأنه قريب مني، أو تبعد إنسانا لأنه بعيد عني. ليكن سبب القرب الوحيد هو الكفاءة.

واعلم أن احترام الناس لن يتأتى إلا بالعدل، وتعد وثيقة شكاوى الفلاح الفصيح من الوثائق القديمة المبهرة في حديث المواطن إلى المسؤول، وكانه برلماني يراقبه، إذ نقرأ فيها مثلا قول الفلاح «اتق دنو الأخرى ولا تقل كذبا. لقد ولبت وجهك شطر الظالمين».

وطرح المتخصص في علم المصريات تورا، مفاده أن التاريخ القديم تعرض لمحاولات تشويه وتزوير عديدة من جانب مؤرخين لديهم أغراض مشبوهة، فكلما «فرعون» لا تعبر عن ملوك المصريين القدماء، قائلا «خراطيش 561 ملكا

مصريا لم يحمل أي منها لقب فرعون، وهو في الأصل مصطلح يشير إلى اسم بيت الحاكم».

وكشف أن العالم الفرنسي موريس بوكاي (1920-1998) ذكر أن فرعون موسى المذكور في الكتب السماوية هو «مرنبتاح» لأن هناك لوحة تسجيل نصر تعود إلى عصره تتضمن النقوش الموجودة وعليها عبارة «طررد قبائل يسريل» من مصر، متصورا أن «يسريل» تلك تشير إلى بني إسرائيل. غير أنه يرى في ذلك افتراء، لأن هناك بالفعل قبائل باسم «يسريل» كانت تعيش في تركيا لا علاقة لها باليهود،

كأحدى العبادات، وهو ما جاء في القرآن بان الصيام كتب على الأمم السابقة. وكان من الغريب أيضا أن تظهر بعض النقوش على المعابد القديمة صفوف من الناس، وهم يسجدون ويضعون ذقونهم وليس جباهها على الأرض، ما يتفق مع النص القرآني في سورة الإسراء «يخرون للأقان سجدا» لأن السجود المعروف في الصلاة هو سجود بالجبهة، لكن سجود المصريين القدامى كان بالأقان.

وأضاف السيسي أن المصريين القدامى عرفوا الحج وأن كلمة «حج» لديهم تعني النور، كما أن كلمة «أز» تعني التوجه نحو شيء ما، وهنا فإن كلمة «حجان» تعني التوجه نحو النور. وتابع قائلا «جسور التلاقي بين تصورات الدين القديم والتصورات الحالية تؤكد أن استلهم الحضارة وقِيمها وثوابتها ترسيخ لفكر التسامح الغائب عن مجتمعاتنا اليوم».

## دحض الأساطير

أوضح وسيم السيسي أن هناك نكوصا من المثقفين العرب عن الغوص في الحضارات القديمة، واستدعاء منجزاتها الفكرية والإنسانية، بسبب التخوف من الصدام حول الأساطير الشعبية التي تناقلتها الأجيال جيلا بعد جيل، أو تصورات البعض عن الدين التي ترفض التشكيك فيها. وضرب مثلا على ذلك بأن البعض يكرر أسطورة عروس النيل باعتبارها حقيقة دامغة رغم أن ذكرها لم يطرح إلا من خلال قصة غريبة حكاها مؤرخ إيراني يدعى بلوتارك، قال إن مصر مرت بسبع سنين من الجفاف، فقام ملك يدعى إيجبتوس بإلقاء ابنته في النيل لينتهي الجفاف.

وفي الحقيقة لم يكن هناك ملك في قوائم الملوك المصريين اسمه إيجبتوس، كذلك فإن نصوص البرديات تخبرنا برفض القدماء لفكرة القرايين البشرية،

بالعودة إلى التاريخ والحضارات القديمة، نكتشف معالم حياة إنسانية ملهمة للتسامح والتعايش مع الآخر وأوجه العدل والاحترام في المعاملات اليومية وقانون الأخلاق الذي كان ينظم حياة المصريين وكان يفرض المساواة المجتمعية وفي نقطة مضيئة كان يقر بضرورة احترام حقوق النساء خير دليل على ذلك. والتاريخ إجمالا بغض النظر عن مصر القديمة، ثري بالوعظ والحكم التي تخبر العالم اليوم أنه لا مكان للكراهية والتعصب الديني منذ القدم، وأن سوء توظيف للمعتقد وإثارة العنصرية والتمييز العرقي كانت متعمدة لتشويه قيم التسامح مقابل تحقيق منفعة لا شك أنها في أغلبها سياسية وتخص طموح الحكم والسلطة. وهو ما أشار إليه عالم المصريات وسيم السيسي في حوار مع «العرب» الذي دعا إلى الاستفادة من دروس التاريخ لمقاومة تحديات الواقع.

ويؤكد وسيم السيسي على «أن استدعاء قيم الحضارات القديمة قد يكون ضرورة لمواجهة الإرهاب، ومقاومة موجات الكراهية العاتية في المنطقة، فالحضارات القديمة قدمت للعالم أسسا ملهمة للتسامح والتعايش مع الآخر والعدل واحترام حقوق النساء، وبيّن قائلا «التاريخ وعاء للنجار الإنسانية، وليس مجرد حجة للوقوف على الأطلال وتذكر الماضي، وإنما هو منصة حقيقية للانطلاق نحو المستقبل».

ويدعم المؤرخ المصري رأيه بمقولة المفكر الإنكليزي فرانسيس بيكون (1561-1626) التي تؤكد أن تقدم أمة يعتمد على عدة ركائز أبرزها: تاريخها، وعلى الثورة الصناعية، وفصل المؤسسات الدينية عن السياسة، لذلك يكرر السيسي قوله «التاريخ يصلح أن يكون قاطرة نحو التقدم والرفي».

ويشير السيسي إلى أن «الحضارات القديمة زاخرة بقيم التسامح والتعايش واحترام الآخر، فالحضارات النهرية مثلا تعكس قيم التعاون والتكاتف والتعايش، ويتجلي كل ذلك في التضامن الجماعي لصد خطر الفيضان، والزراعة المشتركة».

## الدين في مصر القديمة

يؤكد المؤرخ المصري أن الدين لا يخص على العنف، لكن المشكلة تكمن في تصوراتنا له وتوارثنا لمعتقدات خاطئة تنجح على التعصب. وأشار إلى أن الدراسة العميقة للحضارات القديمة تكشف بوضوح أن هناك جذورا للأديان السماوية الثلاث في تصورات المصريين عن الدين: في المعتقدات والعبادات. ولفت إلى أن المصريين القدماء لم يكونوا من عبدة الأوثان، كما يروج البعض دون وعي أو بحث، بل عرفوا التوحيد مبكرا منذ عصر الدولة القديمة الأولى.

كان الشائع أن الملك المصري أختاتون، هو أول من دعا إلى التوحيد، لكن وسيم السيسي يعتبرها مجرد «أكتوبية» تفتقد إلى الوعي بالتاريخ، حيث عرفت مصر القديمة التوحيد منذ عهود الأسر الأولى، وليس أدل على ذلك من أن قراءة في متون (نصوص) الأهرامات قبل عهد الملك المصري أختاتون بمئات السنين وفيها عبارة: واو واو، بمعنى إله أحد، و: ن: سنو، بمعنى ليس له ثان».

وتكرر في نقوش المعابد القديمة ترانيم وصلوات المصريين لتردد «أيها الإله الواحد الذي ليس له ثان. يا مرشد الناس في السبل. يا شافي المرضى». وعرف القدماء الصلاة والصوم والزكاة، وهناك الكثير من الكلمات العربية في القرآن الكريم مستوحاة من الفاظ من اللغة المصرية القديمة. فكلما «ماعون» الواردة في القرآن المصرية قديمة بمعنى زكاة. وتعني كلمة «صا ووم» عند المصريين القدامى الامتناع عن الطعام والشراب، وتكتشف بعض البرديات أن المصريين عرفوا الصوم



مصطفى عبيد كاتب مصري

القاهرة - تسود الكثير من الأوساط المصرية الرسمية والشعبية حالة من الحنين إلى الماضي أو ما يعرف بـ«النوستالجيا»، تحاول ربط الطموحات التي تراهن على المشروعات القومية بما قام به مصريون منذ آلاف من السنين، للإيحاء بأن الحاضر امتداد لمجد ماض، وربما لاستلهم الهمة منه، لدفع المواطنين إلى الصبر على الأزمات الاقتصادية والاجتماعية الخائفة والتكاتف لبعورها.

سواء جاء الربط الحضاري عن قصد أو بشكل عفوي، ففي الحالتين اعتاد المصريون على الإشادة بتاريخهم إلى حد المبالغة، وتحمله أكثر مما يحتمل، بصرف النظر عن حقيقة واقعه المعيش ونظرتهم للمستقبل.

وفي حوار مع «العرب» حاول وسيم السيسي الخبير المعروف في علم المصريات الرد على هذا السؤال المركزي: هل يبالي المصريون في شغفهم بالتاريخ، أم هي النوستالجيا، التي تعبر في أحد تجلياتها عن التذمر من الفقر وواقع قاس أكثر من الفخر أو استلهم قيمه الحضارية. وهل بالإمكان استلهم دروس التاريخ في مواجهة تحديات الواقع.

وسيم السيسي هو طبيب مصري، له إسهامات متنوعة في الفكر والتاريخ، ومعنى بشكل كبير بالحضارة المصرية القديمة، صدرت له كتب عديدة، أبرزها «الطب في مصر القديمة»، و«نظرة طبية فاصحة في الحب والجنس»، و«مصر التي لا تعرفونها»، و«مصر علمت العالم»، و«المسكوت عنه في التاريخ».

## الشعوب تستقي معارفها وسماتها الشخصية من امتزاج الحضارات، وتلاقى الثقافات، ولا بديل لمواجهة التطرف والتعصب إلا من خلال التمسك بقيم الحضارات العظيمة

وفي بداية حديثه استحضر السيسي القصة التي كانت وراء تخصصه في الكتابة عن تاريخ مصر القديم عندما كان يدرس الطب في لندن، حيث حفزه الأستاذ الإنكليزي الذي تحدث بكل فخر عن أفضال بلاده على الإنسانية في إحدى المحاضرات، ليوقد داخله الرغبة في معرفة ماضي بلاده وتاريخها. ويقول «لقد أسهب (الأستاذ) في استعراضه، مشيدا بإسحاق نيوتن العالم الإنكليزي الذي كانت له إسهامات عظيمة في الفيزياء والرياضيات، والبريطاني تشارلز داروين أحد أهم باحثي التاريخ الطبيعي في العالم، ومكتشف البنسلين الأسكتلندي الكسندر فلمنج». فقد كان ذلك محفزا كافيا بالنسبة إليه لاختيار دراسة معمقة لحضارة مصر القديمة.

## الاستفادة من القيم الحضارية

لا تمثل دراسة التاريخ ردة حضارية، ولا يمثل استدعاء الماضي تخلفا ونكوصا عن التقدم، فبعض من الماضي قد يكون أفضل من الحاضر، بل أكثر تحضرا ورفقا. ففي الزمان السحيق ولدت قيم خالدة قد تفتقدنا البشرية اليوم في ظل التقدم التكنولوجي المذهل.

